أشكٌ ...

قصة لبنانية

اول اغسطس سنة ١٩١٤

— لا بدَّ من السفر غداً ... فان شركائي يرون في اعلان الحرب ما يهدد التجارة في مصر . لا تجزعي فالجبل لبنان نظام دولي يضمن لبنيهِ حرية السفر والعمل . وهبي ان الحرب انتقلت بويلاتها الى الشرق فلبنان بعيد عن آثامها وخطوبها فما هو بالطامع في ارض يستعمرها ولا هو بالارض الغنية فيطمع في امتلاكها جماعة المستعمرين الاقوياء . وقد يعود المهاجرون الى وطنهم الجميل المهجور حرباً من ويلات الحرب في البلاد الغربية فيكون الشر النازل بارض خيراً تنعم بهِ اخرى . لا يخيفنك يا سعدى تكاثف الهموم عليَّ فما انا بالرجل يقعدهُ الجزع عن تحملها مجاهداً صابراً ولئن شقَّ عليَّ سفري فان لي من صدقك وجدك في تربية سليم وسعاد سلوى تصحبني في بعدي ووحدتي فاسألي اخاك ما قد تحتاجين اليهِ من المال واحرصي على تربيتها تربية تليق بهذه العائلة التي ينتسبان اليها

وودع سالم زوجتهُ سعدى وابنهُ وابنتهُ في الوطن الامين عائداً الى مصر

***

المطر غزير والغيوم تحجب قمم الجبال المكللة بالثلج كما يحجب النقاب وجه الحسناء الشكلى الباكية والرعد يقصف فتردد صداهُ الاودية كما يردد الكوخ المظلم صدى زفرات الايم البائسة . اوت الطيور الى وكونها وآبت الوحوش الى وُجُرها والتجأ الناس الى منازلهم فلا صوت الاَّ وقع المطر الهاطل وزمزمة الرعد القاصف وانين الرياح العاصفة ولا حديث في تلك المنازل القائمة على كتف الوادي قيام الحارس الامين، الاَّ حديث الآباء والابناء المهاجرين هرباً من الظلم والفاقة وطلباً للرزق والحياة في بلاد الحرية، وحديث الجدود الكرام الراقدين في تلك الارض — معبد آلهة الجمال والحب — وحديث الحرب التي علمت لها قلوب البشر حتى المقيمين في اعالي الجبال

ها هي سعدى تفتح الباب لابنها العائد من المدرسة وها هي تقبلهُ باسمة وتنزع رداءهُ وتسير بهِ الى الموقد حيث تنتظرهُ اختهُ الصغيرة سعاد . يدلك منظر المنزل على بساطة

في العيش و يدلك على الطهارة والقناعة والاباء و يبعثك عن السعادة الكامنة في حياة طاهرة قانعة ابية في تلك الدور المشيدة بسواعد اهلها . لا اثر لمدنية الغرب فيها بل ان هنالك اثراً تستره القناعة التي حفظت لسكان الجبال حضارتهم العفيفة فهم امناء على تراثهم صادقون في حبهم سعداء في حياتهم لا يخشون سوى ذلك الزخرف الذي يسلبهم سعادتهم و يفقدهم ايمانهم وطهارتهم وقناعتهم . فلا تعجب اذاً وانت في قرية راقدة بين احضان الوادي ان ترى قصراً جيء باجرّه واثاثه من بلاد الغرب قرب منزل افتلمت حجارته من صدر تلك الارض وقطعت اخشابه من ضلوع الغاب وزينت غرفه برياحين الحقل

سليم ذكي الفؤاد صبيح الوجه حلو الحديث كثير اللعب شأن فتيان الجبل يحدثك عن الحياة فتعجب لحكمته و يحدثك عن المدرسة فيسرك اجتهاده و يحدثك عن المستقبل فتفرحك آماله . قعد قرب النار يردد على مسمع امه قول الناس ان الدولة دخلت الحرب وان السفر محظور وان الجنود التركية تأهب لدخول الاراضي اللبنانية . انباء سمعتها سعدى فاوجست شرّاً . ولم لا وعينها الوحيد في مصر ودون الوصول اليه مشقات وهي لا تملك من المال ما يرد عن دارها البؤس والفاقة فقد سألت اخاها الغني ثمن الحنطة فاعطاها حائكاً شاكياً و باعت قطعة من حلاها بالثمن البخس لتشتري ثوباً لابنها . انها تفكر بالغد فتبدو لها ظلماته الحالكة وتذكر خلو يدها من المال وغلاء القوت فترتعد فرائصها جزعاً وتذكر حنق اخيها فتيأس وتنظر الى ابنها وابنتها فتبتسم ابتسامة العطف والغم . حال يحار لها عقل الرجل فكيف بامرأة نشأت في قريتها الجميلة ابية النفس فلم تتعلم في مدرستها الصغيرة الا دروس الطاعة والاخلاص والامانة ولم تشهد من الحياة سوى ربيعها الجميل، فقد عُرفت فتاة جميلة طاهرة وزوجة امينة صادقة وامّاً حنوناً رؤوماً، لا معمل في البلاد تعمل فيه لكسب القوت ولا ارض تزرعها فتقي عائلتها شر الحاجة والسؤال ولا نسيب يعطف عليها، ولكنها قوية الايمان رابطة الجأش فهي تخفي عن ابنها وابنتها ما يساورها من الحيرة والخوف فتحدثهما عن العلم وفوائده وعن المجد وثمراته وعن الاباء ومفاخره وعن ايمانها الدائب في المهجر سعياً وراء سعادتهما

***

مرّ بقرية عين السلام تاجر حلى فدعته سعدى الى منزلها واشترى منها ما بقي من

حلاها بعشرة دنانير . انها تساوي خمسين ديناراً .. ولكن ابنها ذهب الى مدرسته دون زاد وابنتها لم تأكل منذ ليلة امس !

— ألست ابن هذه البلاد التي تجمعنا فيها رابطة الوطنية والاخاء ألا يمكنك ان تقنع بالكسب الحلال رحمة

الحياة .. القوت ... الحاجة .. الجوع .. الموت ... ابنها .. ابنتها ... فكرٌ مرّت بمخيلتها فاثارت في نفسها الغضب والشك . والحلي ... ما قيمتها في ساعة تتصارع فيها الحياة الضعيفة والموت القوي في بلاد يسود فيها الجشع والظلم وفي زمن يعيش فيه الذئب المفترس من بني الانسان

انفقت ثمن الحلي ولم يبقَ عندها شيءٌ تبيعهُ سوى المنزل الذي تعيش فيه فذهبت الى ابي خليل تسألهُ شراءهُ

— ما وراءك يا سعدى لعلك تريدين بيع المنزل

— هو كذلك

— ولكن المال قليل والحالة — كما ترين — حرجة

— ولكنَّ ابني وابنتي ينتظرانني لاعود اليهما بشيء يسد رمقهما

— عساك لا تجهلين طرق البيع . سأعطيك عشرين ديناراً تركيًا على ان توقعي عقد البيع وفيه تقرين انك قبضت خمسين ديناراً

— وكيف يكون ذلك يا ابا خليل

— هي الوسيلة الوحيدة

— ولكن العدل ...

— اي عدل يا سعدى ألم يبلغك ان جميع الاغنياء يشترون املاك الفقراء كما ذكرت لك؟ وما هو العدل ! أتشكين في ان الانسان اسير نفسه الجشعة يحب ويبتسم في السعة ويعبس ويطمع في الضيق . اوه يا سعدى . المال .. انهُ الحياة انهُ الصداقة انهُ العدل انهُ الشريعة انهُ الاهل والخلان . والآن اما ان ترضي واما ان تنصرفي . واذا رضيت البيع فقد وجب عليك الحضور امام المحكمة لاقراره

— وما عساني اقول وقد بعت الخمسين ديناراً بعشرين

— قولي انك قبضت الخمسين كما فعل سائر الناس

عجبت سعدى لهذا الحديث ومالت تكفكف دمعها ثم انصرفت راضية مكرهة

— رياهُ ما ذنبنا نشقى ونعاني شظف العيش ونقاسي آلام الفاقة والطوى . لقد بعت حلاي بالمال القليل فكان الشاري رجلاً من ابناء بلادي وبعت المنزل وهو آخر ما تملك يدي فكان الشاري غنياً من اغنياء قومي. ووقفت امام القضاء فأكرهت على الكذب حبًّا بالحياة فعلم القاضي باكراهي فتجاهل شقائي مذ اغمضت دنانير الغني عينيه عن مشهد الحياة المظلومة

***

ما العمل ! أأذهب الى اخي شاكر استعطفهُ بعد ان اراد ان لا اعود اليهِ ! عجباً لهُ كيف ضنَّ وهو الغني، بالدرهم ينفق لانقاذ انفس حمَّلتها الحياة دماً من دمه . لا بدَّ من الذهاب غضب ام رضي ولا بدَّ من سؤاله بثقل ام جاد

وخرجت عارية الرأس دامعة الطرف خائرة القوى تقصد منزل اخيها . فهي تارة تقع وطوراً تقوم حتى وصلت امام حديقة المنزل فوقفت تفكر بما تقول . انها حائرة جزعة لا تدري ما تفعل . أتعود القهقرى وقد قالت لابنها انها ذاهبة لشراء الطعام وانها ستمر بالطبيب لطلب الدواء لابنتها المريضة ام تدخل على اخيها في قصره لعلهُ يرقُّ لقلبها الكليم ؟ أجالت طرفها في تلك الحديقة حيث العصافير تطير من غصن الى غصن مغردة فرحة سعيدة . ما اسعد هذه المخلوقات القانعة بما وهبتها الطبيعة من قوت وكساء ومبيت، الراضية بما قسم لها من رزق قليل . انها لا تخشى الموت جوعاً فهي تهبط الى الارض او تطير الى اوكارها في الغاب كلما جاعت وكلما احست بثورة الطبيعة الغاضبة . وهذا الانسان العاقل الناطق . . . ما اضعفهُ وما اشقاهُ وما اجهلهُ ، احبَّ المادة فضلَّ وسفل ، وطمع فقسا وقتل . اجل لا بدَّ من الدخول

منذ خمسة اعوام عاد شاكر من المهجر وبنى قصرهُ في الجهة الشرقية من القرية . سافر في ريعان الشباب لا يملك من عدد الجهاد سوى حرصه وحبهِ المال ورغبتهِ في التشبه بمن هاجر واثرى فبنى فوق كوخ اجداده قصراً . كان عاملاً مجتهداً يدخر اجر يومهِ فاذا بهِ صاحب حانوت في الاسواق الغربية من الاسكندرية حيث تجوم النسور البشرية على جيف الانسانية المتكوبة ، واذا بهِ صاحب معمل واذا بهِ غني لا يذكر من ماضيهِ شيئاً سوى عهد الشباب الفقير بين ضياع تنتش في تلك الاسواق عن فريسة فتنفق المال في اللهو والعبث فينال النازلون فيها التعس والاثراء من ذلك الانفاق نصيباً وافراً . لقد

اصبح كما اراد غنيا محترماً في عصر شاعت الحضارة فيهِ او يكون ذو المال محترماً بخل ام سفل ، فاذا سار حيّاهُ الناس واذا تكلم صدقهُ الناس واذا رأى رأياً احترمهُ الناس فهو عزيز الجانب محبوب لمالهِ الكثير ورداثهِ الجميل

— ما الذي جاء بك ؟

— رحمتك وعطوفك يا اخي

— ألم اقل لك انني لا اريد ان تعودي اليَّ

— ولكن ابنتي مريضة وابني يبكي ولا شيءَ عندي ابيعهُ لشراء الدواء والقوت

— وما تريدني استطيع ان افعل

— جدّ عليَّ بدرهم ريثما اذهب الى الاب يوحنا فقد بعث يدعوني

— وكيف افعل ذلك وانا اخشى ان تدخل الفاقة داري وان يكون حظ عائلتي كحظ سائر الناس من الحاجة والالم. فقد ذهبت البارحة الى ناظم بك قائد الفيلق المعسكر في القرية فلم يرفعني لديهِ غير الدينار اعطيهِ ثمن رضاهُ ومودتهِ ثم صدت الى حبيب بك مدير مخازن الحنطة احمل وصاة القائد فلم ابلغ امنيتي دون ان اقدم الكرامة والمال قرباناً بين يديهِ على مذبح الصغار والحطة ولكني ما دعو القائد والمدير الى منزلي للغداء فان رجال السلطة يحبون من يملأ بطونهم وخزائنهم ويعطفون على من يثني على عسفهم ويضمون اليهم من الشعب من كان مستبدّاً فتاكاً

فسكتت سعدى وقد ظهر على وجهها اثر الغضب ثم تقدمت الى اخيها تستعطفهُ بالحب الاخوي وبذكرى الحياة الجميلة التي قضياها طفلين سعيدين

— والآن لا مال ولا حنطة؟ ألا تذكر حب الاخت يا شاكر .. ألا تذكر انك السيد الرفيع باهلك وقومك ففي هوانهم هوانك وفي رفعتهم رفعتك؟ الا تعلم ان المرء يخلقهِ وشهامتهِ ؟ ألا تعلم انك وانت الفقير الابي ارفع منزلة منك وانت الغني الخسيس؟ أتشتري عطف القائد السفاح بعزتك — وهي الحياة — أتكون شريك المدير في قتل الشعب فتبيعهُ ضميرك برغيف تأكلهُ ودرهم من دماء الفقراء تجمعهُ ! أتنفق مالك في مرضاة الحاكم الظالم وتضن بدرهم على ذويك ؟ وما هي السيادة التي ترجوها من الخنوع والذل وما هي الحياة الرفيعة التي تسألها السفاك الخائن وما هو المجد الذي تسعى اليهِ في السجود امام قاتلي بني وطنك ؟ بئست تلك السيادة وبئست تلك الحياة وبئس ذلك المجد الذي يلبسك ثوباً من الصغار والعار لا يخلق

وهرولت سعدى مسرعة الى الاب يوحنا

— ان لكِ عندي يا ابنتي عشر ورقات تركية ارسلها اليك زوجك من مصر

— وهل هنالك ورق تركي يا ابتاه وماذا تكفي هذه النقود القليلة القيمة عائلة شقية واقفة على ابواب الموت . لعلَّ الذي جاء بها ذهبَ ايدلها

— اسكتي يا سعدى وابالك ان يعلم احد بالامر الا تسمعين ان السفن الحربية تمرُّ بالسواحل السورية انها بشائر الفرج القريب يا ابنتي

— ولكني لم ارَ فرجاً قط وما هي هذه السفن .. ان كانت تحمل الفرج فما بالها تجيء وتعود دون ان تنقذ الشعب المسكين . انني اشك في ذلك . اني اشك في محبة الاقوياء للضعفاء .. اشك في عطف الدول القوية على هذا الشعب الضعيف المغرور والاَّ فلماذا لا يرسلون جنودهم لخلاص الذين اعدمهم جمال باشا لحبهم الدول ؟ لماذا لا يأتوننا بالقوت والكساء ونحن نموت طوًى وعريًا ؟ انني اشك في تلك التقاليد التي يتقدم بها الينا الاجانب مترددين فيخفو امامهم طالبين عطفهم ومودتهم . ذهبت الى اخي فلم يرحمني ، ذهبت الى الكنيسة وصليت خاشعة فلم يستجب الله دعائي . انني اشك يا ابتِ في محبة الناس ، في محبة الاخ لاخيه ، والاب لابنه ، والحاكم لرعيته ، والقاضي للشعب المظلوم ، انني اشكٌ ... اشكٌ بوجود الله ...

— اعوذ بالله من الكفر يا ابنتي كوني مؤمنة صابرة وخذي هذه النقود ان ربك كريم رحيم

ومضت سعدى فابتاعت قليلاً من القوت وقفلت راجعة الى منزلها فاطعمت ابنها ثم خرجت قاصدة مخازن الحنطة

انتظرت عند الباب ساعات لان « البك » كان يتحدث مع احد اصدقائه وفي الطريق جمع غفير يريد الدخول بل يريد حقهُ من القوت . المخازن مملوءة حنطة ولكن المدير لا يريد ان يرى احداً والحارس يطرد كل من يتجاسر على السؤال . واتيح لسعدى ان تدخل بعد الانتظار الطويل فقصت عليه حالها ولكنها لم تنل ذرة من الحنطة وسألها المدير عن ابنتها المريضة وودَّ لو كانت فتاة حسناء ليدخلها منزلهُ وودَّ لو تقبل سعدى الخدمة في منزله ايضاً ... ولكنها رأت ان حياة الفقر الشريف ارفع من الحياة الضيقة العابثة وان الموت الطاهر خير من حياة الخيانة والفساد

رجعت سعدى الى منزلها وجلست تفكر . قالت ولكني لم اسأل المدبر الخدمة انما جئته طالبة حقًا حتى اذا قام بواجبه شكرت له صنيعه ولئن غرّه ضعفي وفاقتي فقد فاته ان الضعف يتحول الى قوة في مواقف الشرف وان النفس الابية تأبى ان تنزل بصاحبها الى مرة العار . عجبًا لهؤلاء الحكام يساومون الضعيفات الفقيرات عرضهن فان أبين امتنعوا عنهن القوت وان رضين جادوا لهن راضين . أليس ذلك المدير رجلاً ائتمنته الحكومة على حياة الناس ليعطي كل ذي حق حقه فهو اذاً الخادم له اجره من اموال الناس وللناس عليه حق الخدمة الصادقة والامانة فما باله يسلب الضعفاء حقوقهم ليزيد الاقوياء مالاً وقوة وعزًا . يقولون ان الرحمة دواء قد يخفف عن العليل بعض آلامه فتطول حياته والداء يسير به متئداً الى الموت . أنهم نسوا ان العمال الضعفاء ركن الانسانية يثبت بحياتهم ويدك بشقائهم وموتهم فما تراهم يرتدون وقد شلت يمين الناسج وما تراهم يأكلون وقد مات الزارع والحاصد والطاحن وانى لهم هذه القصور الشاهقة وقد أردى الباني جثمًا وظلمًا . قالوا سر جمال باشا فهرع الناس الى الطرقات فرحين . ما اشقى هذه الامة ! أنسوا انه قضى ليلته مع رجاله في منزل ابرهيم بك يشرب ويطرب وحول المنزل جماعات من الشعب ينشدون عن فتات يتلظونها ؟ لقد آلم القائد منظر الناس يتضورون جوعًا ويلبسون الثياب الرثة فمال الى يوسف بك رئيس شركة القوت والى حبيب بك مدير المخازن يسألهما العجلة في توزيع الحنطة — سؤال غريب — وهب ان الحنطة ملأت المخازن أيشفق الرؤساء والمديرون على ابناء بلادهم ! أيعطون فقيراً دون ان يسلبوه اباءه وانفته ! أيعطون غنيًا دون ان يبذل لهم ما شاءوا من مال وعزة وكرامة !

ما اشقاك يا سالم ! لقد بَنيت للفناء وما اخالك الاّ ذاكراً زوجتك وابنك وابنتك متألمًا حائراً ولو استطعت المجيء لراعك عيش نحن فيه ولآلمتك خيانة ذوي قرباك وبني وطنك فما اجمل الموت وويل للظالمين

وفي الصباح كانت سعدى وابنها وابنتها جثثًا هامدة فحملوا الى الجبانة حيث دفنوا في حفرة واحدة دون ان يبكيهم صديق او قريب

***

... وكانت المدينة فهرع الناس الى معابدهم يقرعون اجراسها فرحين . لا قواد ولا جنود . لا حكام ولا اعوان . هكذا تندحر ظلمة الباطل امام صبح الحق . وعلم سالم بمصرع عائلته في وطن احبهُ فاودعهُ احب الناس عندهُ فاذا به يسترد الوديعة قبراً يضم زوجة

امينة وابنًا محبوبًا وابنة طاهرة فبكى بكاء الرجل يرى العزة في حياة شريفة وموت شريف. حدثهُ عن الحياة تسمع منهُ حديث الشك في حياة البشر وتسمع عبراً في وليدة الصدق والامانة في زمن كشف القناع فيهِ عن حقيقة الحمل القاتل فاذا ابتسم فابتسامة سخرية واذا سار الى حاجة فسير الحذر الوجل من اناس يمشون حين يفترسون

لقد عجب لاخي زوجتهِ كيف قسا واعرض عن اختهِ وعجب لابن بلادهِ التي كيف قاسم الحاكم قوت الفقراء . أيبلغ الجشع وحب الثروة بالنفوس حد الاثم والخيانة . اذن فالمدنية التي تفخر بها مدنية شريرة عاتية والحب الذي ينادي بهِ المصلحون حب آثم

في ٢٨ يونيو سنة ١٩١٤ قتل الارشيدوق فرنس فرديناند ولي عهد النمسا فاتهمت الامبراطورية النمساوية بلجارتها صربيا بالجناية وراحت تريد الاقتصاص من امة بأسرها لجريمة ارتكبها احد الناس ولو ان رجلاً دون الارشيدوق اغتيل لما سُيِّر جند ولا أُستشق حسام . ولكن ولي العهد القتيل من رجال الله على الارض لهم ان يمشوا باسم الله والحق والشريعة دون ان يسهم سوء . اما صربيا فقد رضيت بما طلبت النمسا عدلاً وانصافاً ولكن السياسة والامبراطرة ابوا الاَّ ان يسيروا الى المجد على جثث الابرياء وان يقابلوا جناية فرد بجناية لم تشهدها الارض منذ كانت وكان البشر . اربعة اعوام مضت والدماء البريئة تراق باسم الوطنية والحق فبئس الحق يدعو الى الفتك والتنكيل وبئست الوطنية تسلب الام ابنها والزوج معينها لمجد يطمح فيهِ ملك او قائد او حاكم . وما ذنب الشعب الآمن يموت جوعاً وظلماً . أتتهم الاتراك ام تتهم اعوانهم من رجال الوطن في ما قضوا واجترموا ! يكون الحاكم كما يشاء الشعب ان ظالماً فظالم وان عادلاً فعادل فلنفتش اذاً عن ابن البلاد الواقف امام الحاكم وفي يدهِ القيد والحبل والخنجر

وكان الحادي عشر من نوفمبر عام ١٩١٨ عيداً يبتهج فيهِ الظافرون ويتألم لذكراهُ المقهورون — ولكنَّ السلام السائد حرب يخفي ثارها ضعف المقهور وقوة المنتصر الى ان يقوى المغلوب الضعيف فتعود الشعوب الى التناحر باسم الحق والواجب والوطن

***

وهكذا تعصف بالناس افراداً وجماعات ، عواصف الريبة والشك في كل ما يحسبونهُ من اوصاف الالهة !

الاسكندرية ميخائيل العقل